



تمر سورية اليوم بمرحلة حاسمة من تطورها، ثمة جملة عوامل تشير إلى ذلك: أولاً، تراجع جبهة النصرة، تنظيم القاعدة في بلاد الشام، بسرعة غير متوقعة أمام تحالف جديد يحمل اسم "جبهة تحرير سورية"، بعد أن بدا أن "هيئة تحرير الشام" كرست سيطرتها على إدلب والشمال السوري، ومناطق واسعة من ريفي حلب الغربي وحماء الشمالي. أغري هذا التراجع بعضهم بالحديث عن "انهيار الهيئة"، وتختفي دلالاته جبهة النصرة إلى انهيار التيار الإرهابي المتسلّم الذي مر أمس بـ"الدولة"، ويصل اليوم إلى "إماراة" تتبع القاعدة، بعد حقبة ظهر خلالها وكان الصراع على سورية أخذ يتعين باستقطاب حده على الجانب غير الأسد: "دولة داعش وإماراة الجولاني"، وعلى الجانب الآخر روسيا وإيران والأسد، بتباين قدرات أطرافه لصالح روسيا تليها إيران: القوتان اللتان تجران وراءهما جثة تعيش في غرفة إنعاش كتبها على بابها بأحرف نافرة: نظام الأسد. بانهيار حد التأسلم الإرهابي المزدوج، تتزايد فرص تجدد الثورة، شريطة أولاً أن يلعب الشعب دور نفسه في مواجهة التيار المتسلّم، شبه الإرهابي، الذي يقوم به منذ أشهر ضد جبهة النصرة، وأئمّهم ينصبون بغير استهان به إطلاقاً في إخراجها من مناطق رئيسة كانت فيها، قبل أن يخوض أحد أي معركة عسكرية ضدها، وأن يتعلم ممثلو هذا التيار من التجربة الثانية، ويصدقوا أنه لن يكون في مقدورهم، هم أو أي أحد آخر، إقامة دولة إسلامية في سورية، لأسباب أهمها أنه ليس هناك، ولم يوجد قط في أي يوم كيان اسمه "دولة دينية"، فالدولة أجهزة ومؤسسات تسيّرها آليات ومصالح وقوانين وضعية لا دين لها، فمن الحكمة والتعقل أن تتصرف جبهتا الأحرار والزنكي، إذا ما انتصرا، بالروح التي تملّيها مدنية ثورة جمعت، عند انطلاقتها الشعب السوري، بكل مكوناته، وطرحـتـ أعظمـ برنـامـجـ يمكنـ طـرحـهـ لـثـورـةـ شـعـبـيـةـ جـامـعـةـ،ـ يـقـولـ فـيـ أحـدـ حـديـهـ:ـ "ـسـورـيـةـ بـدـهاـ حـرـيـةـ"ـ،ـ يـعـنيـ ماـ بـدـهاـ الأـسـدـ،ـ وـفـيـ حـدـهـ الثـانـيـ:ـ "ـالـشـعـبـ

السوري واحد، يعني لا طوائف ولا فرق ولا حرب طائفية واقتتال أهلي، ولا انجرار إلى اقتتال مع هذا النصيري وذاك النصراني، هذا الرافضي وذاك المؤمن، بحجة أن حرب النظام تستهدف "أهل السنة الجماعة" دون غيرهم، بما أن الثورة ثورتهم وحدهم.

هذا الخطاب الذي ينافق حدي الثورة ويقوضها، وأخذها إلى حيث أراد النظام والإيرانيون لها أن تذهب، بينما كان القائلون به يتوهون أنهم عثروا على حجر الانتصار، فرفضوا تمييز أنفسهم عن الإرهابيين، لمجرد أنهم من "أهل السنة والجماعة" الذين يمكن في غلوهم الرد "السنني" المناسب على غلو مرتزقة إيران الشيعة، وهذا هم يرون رؤية العين، إن كانت تبصر، أن هذا الموقف المذهبى كان فخا نسبه أعداء الثورة لها، أسقطوها هم فيه، كانت تكلفته بحرا من دماء "أهل السنة"، سفح بأيدي مجرمي "الدولة الإسلامية" و"القاعدة" لصالح النظام، حيثما سيطر التنظيمان، ودمرا الجيش الحر والمناطق التي أخرج النظام أو خرج منها. والآن، وبعد أن صرفت "الدولة الإسلامية" من الخدمة، بانتهاء مهمتها، اعتقاد الجولاني أنه صار سيد الثورة الدينية، وأنه يستطيع معاندة سادته وأولياء أمره وأرباب نعمته من عرب وعجم، وهذا هو يسقط، كما تقول قرائن كثيرة وتطورات الميدان، التي تنهش بدورها جزءا من لحم الثورة.

لكي يكون هذا الجديد فرصة لتجديد الثورة، من الضريبي ألا يحتل من يقاتلون القاعدة اليوم مكانها غدا، ويحموا بقائها بحجة توبتهم أو إملاءات إخوة المنهج، وألا يلعبوا دورها في ترويع الشعب، واعتقال أبنائه أو تصفيتهم، ولا يدمروا عمرانه ومصادر رزقه، ويعنوه من التعبير عن نفسه حتى همسا في مناطقهم. عليهم ألا يمارسوا دورها هذا، وأن يقطعوا مع بقائها ويستقلوا عن الدول الخارجية، وبالآخر أن يفكوا إلى أبعد حد ممكناً تبعيthem لها، ليكونوا أصحاب قرار سوري مستقل، ولو نسبيا، ويكون لهم حامل شعبي / مجتمعي، يمكنهم الاستقواء به، بعد أن تنظم القوى المدنية التي تتحرك اليوم في كل قرية وبلدة بدور فيها صراع ضد الهيئة، قدراتها، وتحصنها ضد الانزلاق من جديد نحو خياراتٍ تناقض حدي ثورتها وبرنامجهما الأصلي، وكذلك ضد تلاعب القوى الخارجية والعربية بها، التي لطالما تلاعبت بجبهة النصرة قبل أن "يجدبها" الجولاني ومجالسه الشرعية، ويعتقدوا أنهم يستطيعون "النط" من فوق خيالهم ، فدقوا أعنائهم!

ثانيا، بدايات تجدد دور شعبي يشبه الدور الذي صنع الثورة في بداياتها وصاغ برنامجهما، السابق ذكره، وهناك اليوم علامات تشير إلى عودة ما إليه، تتجلى من خلال انفراد علم الثورة الأخضر باختيار الشعب وولائه، واحتفاء الأعلام السوداء من الساحة، واستعادة هنافات التمرد الأولى: "سورية بدها حرية، والشعب السوري واحد". إنها إدارة ظهر لثورة "أهل السنة والجماعة" التي كلفت مئات الآف الشهداء، وعادت على النظام بملائين المؤيدين من "السنة" وغيرهم، وشققت المجتمع السوري، وقدمت الأرضية لصعود تيارات متغيرة متذبذبة، تستخدم الإسلام لغايات تناقض رحمانيته، تجلب به، وتعتبر الحرية كفرا، والسوريين طوائف متعارضة، لا تشكل مجتمعة شعبا واحدا، ولا يربطهم ببعضهم غير الرغبة المتبادلة في إبادة الآخر، لأن سيدنا عمر (ر) لم يعتبر الحرية حقاً طبيعياً للناس، لا يلغيه دين أو تحجبه ضرورة، أو لأن شعب سوريا يقبل أن يكون طوائف متناحرة، تحول يد الدولة الاستبدادية القوية دون فتكها ببعضها، كما تقول نظرية شائعة في أوساط إعلامية غربية، تسوغ بهذا التزوير استبداد الأسدية الذي تبناه جهله "المجالس الشرعية"، وألزموا بنادق "داعش" و"النصرة" بمحاربة السوريين جماعةً بعد أخرى، وهم يوهمون أنفسهم أنهم يقتلون النظام، حين يقتلون علويَا أو درزيَا أو مسيحيَا أو شيعيا وحتى سنِيا. تستعيد الحاضنة الشعبية بعض حراكها الأول، بقي أن تحصن تنظيمياً وسياسياً ضد الانجرار، مرة أخرى، وراء غوايات مذهبية وطائفية، كالتى ظهرت بعد عام الثورة الأول، وحرفتها عن مسارها الأصلي، وأخذتها إلى كارثة الأسلامة التي

قوّضت الثورة وأنقذت النظام، وتسسيطر اليوم أيضاً على معظم حملة السلاح الذين لا يفرّون بين العسكرية والمقاومة، ويجهلون أن الثانية تعني حمل السلاح دفاعاً عن حق كل مواطن سوري في العدالة والكرامة، والقتال من أجل حرية المواطنين إناثاً وذكوراً، إلى أي دين أو فئة أو جنسية أو طبقة انتموا، بينما العسكرية التي تمارسها الفصائل، وعليها هجرها إن كانت عازمةً على الإفلات من إخضاع المجتمع وثورته لبنادق يوجهها جهل قادة كالبغدادي والجولاني وتطرّفهم، و"مجالس شرعية" لعبت أخطر الأدوار في قلب تناقض الشعب العدائي مع النظام إلى تناقض عدائي بين أبناءه وداخل صفوفه، أراح النظام وأهله أعداءه، بحدث ضعيف من هنا وقياس مقطوع الصلة بالواقع من هناك.

لن تكون هناك بعد اليوم ثورة على الأسدية من دون إنقاذ الثورة من هولاء، ورفع أيديهم عنها، وتفعيل الحراك الشعبي وتنظيمه وتمثيله بواسطة هيئات تنتخب بحرية، لا تسمح باي ازياحٍ عن هدف الحرية ووحدة الشعب، وأية أدلة طائفية أو مذهبية للصراع ضد النظام، وتفسح، في المقابل، مجالاً واسعاً في العمل الوطني، لمشاركة سياسية متكاملة، تنخرط فيها مكونات الجماعة الوطنية السورية جميعها، من دون إقصاء أو تمييز، عسى أن تستعيد الثورة من خسرتها، بسبب طائفية النظام من جهة، وتبني المتذهبين المتعسّكرين نهجه المدمر من جهة مقابلة. ولولا ذلك، لربما كان الأسد قد رحل عن سورية وتغير نظامه، ولما انقلب سوريّة إلى ساحة صراعات وتصفيات دولية، أو اعتبر نضال شعبنا في سبيل حريته جزءاً من الإرهاب الدولي. يعود حراك السوريين السلمي إلى الساحة، بشهادة مظاهرات عشرات الآلاف في إدلب وسراقب وكفرنبل ومناطق انتشار جبهة النصرة والغوطة الذين تحدثوا لغة واضحة مع "جبهة تحرير سورية"، تحدّرها من أن تغدو "نصرة" بديلة، أو تنخرط بدورها في مسيرة تعسّك وتمذّب متقدّدة، لن تكون نتيجتها مغايرة التي بلغتها "الدولة الإسلامية" والقاعدة، فضلاً عن انهيار الثورة النهائي وانتصار النظام.

ثالثاً، بسقوط خيار التأسلم والتعسّك الذي لا بد أن يستكمّل بسقوط قواه المسلحة، تزداد الحاجة إلى استعادة برنامج التمرد الثوري الأول: الحرية والعدالة والمساواة والكرامة الإنسانية للشعب السوري الواحد، وال الخيار الديمقراطي بديلاً واحداً للنظام، وإلى بناء أداة موحدة للمقاومة، تحمي السوريين وتفاعل تكاملاً مع حراكهم السلمي، وتسهم في وضع حد لحقبة دفع السوريون أثماناً فادحة لها، تراجع فيها دورهم وضمّر وعيه، وغرقت نزاهتهم النضالية تحت أمواج تشبيح عاتية. بالتوازي مع استعادة الحراك، لا بد من استعادة برنامجه "الحرية للشعب السوري الواحد"، الذي لا يعقل أن يخالفه أو ينافسه بعد اليوم أي برنامج آخر، ما دامت الثورة لا تنتصر بل تهزم، أن كان لها برنامجاً متناقضان، أحدهما متعسّك/ متذهّب يرفض الحرية ووحدة الشعب، يفتّك بانصار الثاني، المنادي بالحرية والعدالة والمساواة والكرامة الإنسانية لأبناء سورية.

هل من الكثير على شعب قدم مليون شهيد أن توضع البندقية في خدمته، وتلتزم ببرنامجه، وتخضع لمدونة وطنية، تمنع الفوضى والاختراقات المعادية، والاعتداء على السوريين وانتهاك كراماتهم، باسم "ثورة إسلامية" أعادت إنتاج الاستبداد الأسدّي حيثما وجدت، في مستوىً لا يقل عنه انحطاطاً وتجبراً وكرهاً للشعب والوطن.

إذا كانت الثورات مجموعة من البدايات، فنحن أمام بداية جديدة، يجب أن نضع قدراتنا وخبراتنا في خدمتها، وأن نزودها بالخطط والبرامج التنفيذية التي تكفل تناميها وتؤهلها لاستباق ما قد تواجهه من تحديات ومخاطر. هذا واجب، إن تخلينا، نحن المثقفين المناصرين للحرية، عنه، تركنا لساحة من جديد للمتلاعبين بها والمشبوهين المتطرّفين، وأسهمنا في ما يتربص بها من فشل.

المصادر:

العربي الجديد